ست الملك

امرأة خطرة

اشتهرت ست الملك بنت العزيز بالله الفاطمي: بأنها امرأة خطرة.

كانت صاحبة نفوذ وسلطان.

بارعة في أمور السياسة.

وكان والدها العزيز يستشيرها في أمور الدولة، مما أدى إلى ازدياد خبرتها السياسية.

وإلى جانب هذا، فقد كانت تتمتع بذكاء خارق وثقافة موسوعية. ولما حضر الخليفة الموت أوصاها أن ترعى أخاها ولي العهد، وتقف جانبه تساعده في الأمر.

وقد كانت هذه الوصية هي السبب في بروزها على مسرح الأحداث، وتأثيرها الفعال على عرش الخلافة الفاطمية.

مات الخليفة العزيز، وتولى حكم البلاد من بعده أخوها الحاكم بأمر الله، والذي كان حكمه مهدداً من قبل "برجوان" الوصي على

obeikandl.com

العرش، حيث كانت المملكة في قبضة يده، بعد أن فـــرض عليـــها سلطانه وهيمنته، فوقفت ست الملك تعزز ملك أخيها وتحميـــه مـــن سيطرة برجوان.

ولكنها فوجئت بما لم يكن في الحسبان!

فقد بدأت تظهر على الخليفة أمور عجيبة!!

فجأة، أصدر الخليفة أمراً ملكياً: بتحريم أكل الملوخيـــة والقـــرع والفجل على كافة أهل المملكة، وبعدها بأيام أصدر أمراً آخر بإطفاء الأنوار ليلاً، وحرم على النساء الخروج إلى الطرقات أو التطلع من النوافذ، وبعد ذلك أصدر أمراً آخر بمنع صانعي الأحذية من صنـــع أي حذاء لهن وحرم عليهن ارتدائه.

ولم يكتف بذلك، بل أعلن مرسوماً ملكياً منع النساء من البكـــاء على الموتى والسير وراء الجنازات، ومنعهن من دخول الحمامـــات العامة.

أما ست الملك، فقد أذهلتها هذه التصرفات الغريبـــة، وحـــارت فيها، وحاولت أن تقنع نفسها بأن الخليفة يمر بـــنزوة طارئـــة وأن عليها احتمالها، ولكنها، لما بدأ يعزل الوزراء والقـــواد دون ســـبب منطقي، ويستحي الناس والأموال ظلماً وبـــهتاناً، وجـــدت أن مـــن واجبها أن تتدخل في الأمر، ومن ثم فقد واجهت أخيها وتحدثت معه بالحكمة وللعقل، تبصره إلى سوء أفعاله وتصرفاته، لكـــن الحـــاكم

بأمر الله: غضب من تدخلها في أموره، ولم يغفر لها تطاولها عليه بالنقد والنصح، فرد عليها بخشونة وجفاء، وهددها بالعقاب الصارم لو حاولت إزعاجه مرة أخرى.

ومن يومها بدأ الحاكم بأمر الله: يعادي ست الملك، ويضيق عليها معيشتها.

وعلى الجانب الآخر، كان الناس في الشارع يتذمرون من هذه الأوامر الغريبة غير المنطقية، التي يجبرهم هذا الخليفة على اتباعها.

ويوماً بعد يوم أصبحوا يستهزئون به.

ثم في النهاية أطلقوا عليه لقب "المجنون".

وقد بدا الخليفة كما لو كان قد فقد عقله فعلاً.

فأخذ يتجسس على الناس بشكل مبالغ، ودس جواسيسه في كل مكان، وأصبح التجسس على كل صغيرة وكبيرة: شاغله الشاغل، حتى أصبح هذا الأمر خطراً على الأمن العام.

وبدأت أمور الدولة تضطرب بسبب الإجراءات التعسفية، وسادت حالة من الفوضى وعدم النظام، وخشي الناس على أنفسهم وأموالهم، بعد أن كثر أخذ الناس وحبسهم بالظن، أو الافتراء عليهم، وقتلهم طمعاً في أموالهم.

وفي وسط هذه "المعمعة" ادعى الحاكم بأمر الله: أنه إله!!

obeikandl.com

كان قد بلغ ذروة جنونه.

أعلن فجأة أن روح الوجود قد حلت فيه!

وأنه صار تبعاً لذلك: الرب المعبود، ولم يعد بشراً!

ولكي تكتمل عناصر الفاجعة، أمر الناس أن يعبدوه، وكان قد جمع حوله بعض المهووسين الانتهازيين، فرسخوا جنونه بولائهم له.

وقد أصبح الخليفة منذ أن ادعى الألوهية: طاغية لا يعرف رحمة أو شفقة، فملأ بالذعر قلوب الجميع، ولم يستطع أحد الوقوف في وجهه، لأن أي عصيان كان عقابه القتل بأبشع طريقة.

ولكن ست الملك لم تكن ضمن زمرة عباده، لذلك غضب عليها الخليفة، واعتقد أنها بذلك تتعمد إحراجه، فرأى أن يلقنها درساً، فبعث إليها برسالة يقول فيها: رفع إليّ أصحاب الأخبار، أنك تدخلين الرجال إليك، وتمكنيهم من نفسك".

إلى آخر الرسالة.

وهكذا حوت هذه الرسالة التهمة الشنيعة بارتكاب الفاحشة، وقد كانت عقوبة هذه الجريمة هي الموت على أبشع صورة، فماذا تفعل ست الملك؟ إن الأخ المختل يضيق عليها الخناق، ويقودها للعار والموت ظلماً وقهراً، أمّا هي: فقد تحملت كل صنوف العذاب، على أمل أن يفيق من هذيانه، ويرجع إلى الصواب، ولكن يبدو أن هذا

الأمل صار محض سراب، وأن هذا المجنون قد تجاوز الحد الذي يمكن السكوت عليه والتغاضي عنه.

وقررت ست الملك شيئاً رهيباً!!

بعثت برسالة سرية إلى سيف الدولة بن دواس تقول فيها: "لي إليك أمر، لابد فيه من الاجتماع فيه معك، فإما تنكرت وجئتني ليلاً أو فعلت أنا ذلك". فرد عليها سيف الدولة: أنا عبدك والأمر لك.

وما إن حل الليل حتى خرجت ست الملك من دارها متنكرة، متخفية من أعين الرقباء والجواسيس،حتى وصلت إلى دار سيف الدولة، وهناك في جلسة سرية ثنائية:عرضت عليه ما جاءت من أجله، ووضعت معه الخطة التي فكرت فيها للتخلص من الحاكم بأمر الله بقتله، وإنقاذ الإسلام والمسلمين من شروره، وبعد أن استوثقت منه ومنحت له،عادت إلى قصرها سراً كما خرجت منه.

وفي اليوم التالي استدعى سيف الدولة عبدين من أشد عبيده، وأقواهم بأساً وجلداً وبعثهما إلى ست الملك، فاستمالتهما وأعطت لهما ألف دينار، غير الثياب والإقطاعيات والخيل، ثم أطلقتهما في أثر الحاكم ليأتوا برأسه. فلما قُتل فعلاً، قامت من فورها: ودفنته في مجلسه، وكتمت أمره، ثم منحت بن دواس والعبدين مكافأة كبيرة، وقد قُتل الحاكم بأمر الله ليلاً يوم الاثنين في السابع والعشرين من شوال عام ٤١١ هجري.

وبعد أن نجحت ست الملك في التخلص من أخيها، أرسلت إلى ولي العهد تطالبه بالحضور على الفور، وكان في ذلك الوقت في دمشق، ثم أرسلت إلى أحد قادة الجيش، هو: علي بن داود، تأمره أن يقضي على ولي العهد فور وصوله، وقد وقّعت هذه المراسلات باسم أخيها الخليفة، الذي لم يكن خبر موته قد أذيع بعد.

فلما اطمأنت ست الملك، وتأكدت من التخلص من ولي العهد، راحت توزع الهبات والأموال على الكبراء وذوي السلطة والمكانة، كي تضمن منهم الولاء والإخلاص، وتتأكد من طاعتهم لما عزمت عليه من تنصيب ابن أخيها مكان أبيه، واستخلافه في الحكم وإدارة المملكة، فلما تأكدت من مناصرة الجميع وموافقتهم للبيعة: لأبي الحسن علي بن الحاكم بأمر الله، ضعت على رأسه تاج المعز لدين الله الفاطمي ــ جد أبيه ــ وهو تاج عظيم مرصع بالجواهر الثمينة والأحجار الكريمة، ثم أركبته في موكب الخلافة،وبين يديه الوزراء وأرباب المملكة، وحين وصل الموكب باب القصر: استقبلته أصوات التهليل والفرحة، وبايعه الناس خليفة للمسلمين، وكان وقتها صبياً لم يزل صغيراً، ولُقّب بالملك الظاهر.

لكن ست الملك التي لم تكن تدع شيئاً للظروف.

شرعت بعد أن اطمأنت إلى سيادة سلطانها على البلاد، واستحكام الأمور بين يديها، إلى التخلص من كل من تآمر معها على مقتل أخيها الخليفة.

فتخلصت أولاً من أبي دواس، وعبديه، بأن أرشدت عليهم فحوكم وقتل هو ومن معه، ثم سعت بعد ذلك: فقضت على الوزير "خطير الملك" الذي عاونها على كتمان السر، ورفع الخليفة الظاهر على العرش، وبعد هذه الأحداث ظلت ست الملك تحكم مصر، نيابة عن الظاهر حتى ماتت عام ٤٢٥ هجري.

obeikandl.com